الهايكو
قصيدة نثر قصيرة

عبد القادر الجموسي

شاعر وناقد من المغرب

١

تشمل "القصيدة القصيرة" صيغا شعرية متعددة من قبيل المقطعات والقصيدة الغنائية والومضة، والبرقية وقصيدة الهايكو. يكتسب هذا المعيار الكمي أهمية متزايدة في المدونة النقدية اليوم بحيث يستعمل كمصطلح إجرائي لمقاربة مختلف الصيغ الشعرية المقتضبة التي يعبر بها الشعراء من أجل تحويل التجربة إلى شكل وتعبير ورؤية.
اختصت القصيدة القصيرة، وهي الأسبق زمنيا في مُختَلِف شعريات العالم، بأغراض شعرية غنائية في الغالب. بينما استأثرت القصيدة الطويلة بالأنماط الشعرية الدرامية والملحمية التي تقوم على التركيب والتشعب والسردية لتشخيص النمو الدرامي للنص والتعبير عن شساعة الرؤية.

٢

في مجالنا التداولي، على سبيل المثال، اعتمدت القصيدة العربية الكلاسيكية مبدأ البيت الواحد، ثم اتخذت تدريجيا أشكالا من الصيغ الشعرية من قبيل "قصيد" أو "قصيدة" أو "مقطعة" لتنمو مع نضوج التجربة وتطوّر تقنيات الربط والاتساق وتتبلور في شكل "حوليات" و "معلقات" ذات أغراض متعددة من مدح وهجاء ورثاء ونسيب.
وبالموازاة مع هذا التطور التدريجي، ابتكر النقد العربي اصطلاحات عديدة للإشارة إلى حجم القصيدة. فكان النقاد يطلقون اسم القصيدة على ما تجاوز عددا من الأبيات، كما نحتوا مفاهيم دالة على أنماط من "قصيدة البيت الواحد"، كالمقلد والبيت المفرد المستغني " القائم بنفسه لا يحتاج إلى ما قبله ولا ما بعده" على حد تعبير ابن رشيق.

يعزو بعض الباحثين اعتماد الشعراء أسلوب القصيدة القصيرة إلى تأثير إيقاع "العصر" السريع على وعي الإنسان المعاصر وتمثله للواقع المعقّد والمتشظي، فيما يربط البعض الآخر مسألة حجم القصيدة بطبيعة الموضوع الشعري في حد ذاته، على أساس أن "التخييل الفاضل هو الذي لا يتجاوز خواص الشيء ولا حقيقته" بتعبير ابن رشد. أو بالنظر إلى القصيدة القصيرة كحيز جمالي يتجوهر فيه الشعر بوصفه رؤية للعالم. مما حذا بشاعر مثل إدغار آلان بو إلى أن يعتبر القصيدة القصيرة موطن الشعر الحقيقي لما تتيحه من قوة الإحساس، وأن القصيدة الطويلة إما أن تكون سلسلة من القصائد القصيرة أو تكون مُجرد توليف مصطنع عاجز عن تجسيد المبدأ الموجه لكل شعر والمتمثل برأيه في تحقيق الانفعال الشعوري الذي يرقى بالإحساس الإنساني الى تذوق الجمال كقيمة عليا.

من هذه الزاوية تحديدا، لا يختلف مسار الهايكو تماما عن خط التطور الذي عرفته القصيدة العربية أو الغربية من حيث انتقالها من الشكل البسيط إلى المركب.

٣

من تعريفات الهايكو أنها "قصيدة نثر قصيرة". وهو تعريف كمي ونوعي في آن. من حيث الشكل تكتب قصيدة الهايكو في بيت واحد أو جملة شعريّة من سبعة عشرة مقطع، مقسمة الى ثلاثة أشطر تلفظ في حيّز نفس واحد يعادل برهة الدهشة التي تصدر من الانسان ازاء موقف إنساني أو مشهد طبيعي. ومن حيث النوع، يعكس شعر الهايكو رؤية جمالية وفلسفية للعالم في صيرورته اللامتناهية، فتستحيل الكتابة من هذا المنظور فعلا انسانيا يرمي إلى تقمص اللحظة الجمالية العابرة وتخليدها عبر طرائق الفن.

تنحاز قصيدة الهايكو الى مدار الشعر. لذلك يشكل التعبير عن الإحساس الإنساني أحد مرتكزاتها الأساس. ورغم أن كل المواضعات الشكلية التي تحدد حجمها وتقنياتها وموضوعاتها، فهي ليست قانونا صارما لا يحيد عنه شاعر، ولكنها مع ذلك تظل مبدأ أساسا موجها لكتابة الهايكو وهو ما يمنح قصيدته قواما وهوية. علما بأن قصيدة الهايكو ليست وليدة صرعة شعريّة عابرة وإنما هي محصلة قرون من الممارسة الشعرية المتراكمة والمتجذرة في أنساغ التاريخ والثقافة اليابانيين. خبرها كبار الشعراء واشتغلوا بتطويرها وصقلها وانتهاك خصائصها أحيانا وفق مبدأ تطور الأشكال بما يلائم حساسياتهم الجديدة ومفهومهم للشعر واللغة والعالم.

يتبين مما سبق أن الهايكو يكتب في سياق التراكم الذي حققه شعراء قصيدة النثر العربية الذين أبدعوا لنا نصوصا جميلة بصمت شعريتنا وفضاءنا الغنائي بنحو كان له أثره المشهود في الوجدان العام.
فضلا عن ذلك، ليست قصيدة الهايكو مجرد قصيدة نثر قصيرة فحسب، وإنما هي اختيار فني له حجمه وأسسه وأغراضه الشكلية والتقنية والرؤيوية. وذلك على عكس قصيدة "الومضة"، على سبيل المثال، التي ظهرت كمصطلح لم يتطور ولم يعرف عملا تقعيديا يرقى بها الى مصاف المصطلح الإجرائي الذي يتميز بالملاءمة والنجاعة النقدية التي تحول الشكل الأدبي الى ثقافة ومعرفة.

المراجع المعتمدة

١) ابن رشد، تلخيص كتاب الشعر، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٨٦.
٢)ابن رشيق، العمدة في محاسن الشعر وآدابه، دار الجيل، ١٩٨١.
٣)خليفة محمد التليسي، قصيدة البيت الواحد، دار الشروق، بيروت، ١٩٩١.
٤) طه حسين، جنة الشوك، دار المعارف، الطبعة الحادية عشرة.
٥) محمد مازي، قصيدة الومضة وإشكالية الشكل، مجلة المعرفة، العدد ٣٥٤، ١ مارس ١٩٩٣.
٦) نزار بريك هنيدي، شعريّة القصيدة القصيرة، مجلة ثقافات، العدد ٥، ١ يناير ٢٠٠٣.